الباب الأول

مصادر الدراسة

الفصل الأول

كتب التفسير :

* النحو وتفسير القرآن.
* فَعَلَ الدالة على الماضي.
* فَعَلَ مسبوقة بـ "قد".
* يفعل مجرّدة من الأدوات.
* يفعل مع الأداة.

النحو وتفسير القرآن الكريم

كتب التفسير من أهم المصادر التي يعول عليها في دراسة النحو القرآني، ونعني بالنحو دراسة الكلمة وتحليلها في سياقها العام وتحديد وظيفتها الدلالية في التركيب الذي بفضله ينشز المعنى العام للكلمة.

ومن هذا المجال العريض الذي تحتله كتب التفسير في النحو القرآني تأتي أهمية دراسة زمن الفعل، من خلال كتب التفسير، ولقد أصبح المهتمون بموضوع التفسير، يقسمون المباحث التفسيرية قديمها وحديثها، الى اتجاهين كبيرين هما :

التفسير بالرأي، والتفسير بالأثر(1)، وهما اتجاهان انضوت تحتهما مناهج تقترب أو تبتعد عن أصلها الأول.

والمنهج الذي يهمنا في هذه الدراسة هو المنهج اللغوي، ولقد ظهر هذا المنحى الدراسي في القرن الثاني الهجري، نتيجة للدراسات اللسانية التي عرفها القرن الثاني الهجري في علم النحو، والصرف، والبلاغة، والقراءات وغيرها من الدراسات التي نشأت أساسا من أجل فهم القرآن، والاقتراب من معانيه(2)، ويهدف هذا المنهج في التفسير الى شرح معاني القرآن وفق

1 – انظر – التفسير والمفسرون للذهبي 156/1 وما بعدها.
- مقدمة التفسير للراغب الأصفهاني 423.
- بحوث في تفسير القرآن الكريم، للدكتور محمد ابراهيم شريف.
2 – انظر
- القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية 220-222.
- مقدمة معاني القرآن للفراء بقلم المحققين محمد علي النجار وأحمد يوسف نجاي.
- مقدمة مجاز القرآن لأبي عبيدة محققه محمد فؤاد سزكين.

التحليلات النحوية والصرفية، والبلاغية «وكان رائدهم في ذلك أن النص القرآني، ليس نصا دينيا فقط، وانما هو كذلك نص أدبي معجز، ومن ثم اتجهوا في فهمه اتجاها لغويا بعيدا عن التأثر بدينيات، قد لا تعطيها الدلالة اللغوية، ولا يسعف على استنباطها من النص تركيبه الأدبي المعجز»(1):

ونحسب أن هذا الضرب من التفسير، قد استفاد من المنهجين السابقين التفسير بالأثر، والتفسير بالرأي، اذ هو يجعل نصوص القرآن مصدرا أساسيا للتفسير والشرح: تفسير معنى آية بآية أخرى، وإعراب آية قياسا على آية أخرى ولكنه في الوقت ذاته يعتمد على الاجتهاد وإعمال الرأي في الاستدلال بالصحيح من الشواهد الشعرية والنثرية. «ولاجدال أن هذا الاتجاه، كان قد أصبح متميزا، له منزعه الخاص وقدرته على التحليل الذي لايدع النص مغلقا دون الاستدلال بكل ما فيه وربما كان هذا الاتجاه من أهم الاشياء التي طورت معنى التفسير، ووسعت في مفهومه.

لذلك نجد أننا لا نكاد نظفر بمنهج متفق عليه بين الناس سوى المنهج التحليلي للنص. واذا وجد من العلماء من عاب على الاتجاهات الأخرى، إبرازها لجانب معين دون جوانب أخرى فلا يوجد منهم من عاب هذا الاتجاه أو قلل من شأنه(2) ويمكن أن نجمل الخصائص التي يتميز بها هذا المنهج الذي عليه مدار بحثنا في هذا الفصل بما يلي :

1- الاعتماد على المأثور من السنة النبوية الشريفة وعلى ما أثر عن الصحابة رضوان الله عليهم والتابعين من شرح وتفسير للآية والاستفادة من التفاسير السابقة.

من ذلك تفسير الفراء لقوله تعالى : «واذا أردنا أن نهلك قريـــة أمرنـــا

1- بحوث في تفسير القرآن الكريم : 158 د/محمد ابراهيم الشريف.
2 - المصدر نفسه : 160.

مترفيها ففسقوا فيها» (الاسراء 16/17): بقوله : أي أن المترف اذا أمر بالطاعة خالف الى الفسوق. وفي قراءة أبي كعب : بعثنا فيها أكابر مجرميها وقرأ الحسن : آمرنا. وروى عنه أمرنا، ولا تدري أنها حفظت عنه، لأنا لا نعرف معناها هنا، ومعنى آمرنا بالمد أكثرنا. وقرأ أبو العالية الرياحي : أمّرنا مترفيها. وهو موافق لتفسير ابن عباس. وذلك أنه قال : سلطنا رؤساءها ففسقوا فيها(1).

2- تفسير معنى آية -كما قدمنا بآية أخرى أو اعراب آية قياسا على آية أخرى.

ومن ذلك تفسير الفراء لقوله تعالى : «ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله» (البقرة : 246/2) قال : نقاتل مجزومة لا يجوز رفعها فإن قرئت بالياء (يقاتل) جاز رفعها، وجزمها فأما الجزم، فعلى المجازاة بالأمر وأما الرفع، فأن تجعل يقاتل صلة للملك ومثله «اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم». (يوسف : 9/12) لا يجوز الا الجزم(2).

3- دراسة البنية التركيبية للوصول الى معانيها يقول أبو حيان في تفسير قوله تعالى : «كونوا قردة خاسئين» (البقرة : 65/2) :

كلاهما خبر كان والمعنى أنهم يكونون قد جمعوا بين القردة والخسوء، ويجوز أن تكون «**خاسئين**» صفة لقردة، ويجوز أن تكون حالا من اسم كونوا(3).

4- رد الاراء النحوية اذا تعارضت مع المعنى الذي يقتضيه السياق القرآني. يقول ابن جني في باب عقده للعلاقة بين النحو والتفسير : «اذا مر بك شيء من هذا عن أصحابنا فاحفظ نفسك منه، ولا تسترسل اليه فان أمكنك أن

1 - معاني القرآن للفراء 117/2-119.
2 - المصدر نفسه 157/1.
3 - تفسير البحر المحيط 246/1.

يكون تقدير الاعراب على سمت تفسير المعنى، فهو ما لاغاية وراءه، وان كان تقدير الإعراب مخالفا لتفسير المعنى تقبلت تفسير المعنى على ما هو عليه، وصححت تقديرا الإعراب حتى لا يشدّ منها شيئ عليك. واياك أن تسترسل، فتفسد ما تؤثر اصلاحه(1).

5- اظهار ما في القرآن الكريم من الثورة البلاغية التي أعجزت مشركي العرب، عن الاتيان بمثل أقصر سورة منه، ولقد بلغ الذروة في ذلك الزمخشري في "الكشاف" إذ لم يكتف بالتركيز على الجانب اللغوي فحسب، بل نجده يحتفل بالتحليل الاعرابي احتفالا كبيرا لإظهار مقاصد القران الكريم في الترتيب والتركيب، وهو نهج اقتداه معظم من جاء بعده من المفسرين(2).

6- الإكثار من الاستشهاد بالتراث اللغوي من شعر ونثر للاستدلال على شرح آية أو توجيهها وجه معينة وهذا من الكثرة والاطراد، بحيث لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحات الكتب ذات الاتجاه اللغوي.

7- الافادة من الأصوات اللغوية للوقوف على أصل الكلمة المفردة من ذلك ما جاء في معاني القرآن الأخفش الأوسط في قوله تعالى :

«واذكر بعد أمة» (يوسف : 45/12) قال : وانما هي افتعل (اذتكر). ولكن اجتمعنا في كلمة واحدة، ومخرجهما متقاربان.

وأرادوا أن يدغموا، والأول حرف مجهور، وانما يدخل الأول في الآخر، والاخر مهموس فكر هوا أن يذهب منه الجهر، فجعلوا في موضع التاء حرفا من موضعها مجهورا، وهو الدال، لأن الحرف الذي قبلها مجهور، ولم يجعلوا

---

1 - الخصائص 384/1.

2 - انظر على سبيل المثال ولمزيد من التعمق في هذا الموضوع :

- التفسير والمفسرون 444/1.

الطاء لأن الطاء مع الجهر مطبقة فأبدل التاء ذالا، ثم أدخل الذال فيها (1).

وتأسيسا على هذا المنهج اللغوي فان معالجتنا لهذا الموضوع ستفيد من كل الكتب التي اقتربت من معاني القرآن سواء كانت مؤلفات مختصرة، ككتب معاني القرآن أم كتب تفسير مطولة كالبحر المحيط والكشاف، وتفسير القرطبي وغيرها (والنحوية على الخصوص) في تفسير آي القرآن الكريم.

ويبدو أن المفسرين قد فهموا أكثر من غيرهم أن دور القاعدة النحوية لا ينتهي عند شكل الكلمة، وانما يتجاوزه الى التركيب، تركيب الكلمة داخل الجملة، وما تؤديه من عمل في تجلية المعنى ومن هنا تأتي أهمية العلاقة الحميمة التي حاول المفسرون اقامتها بين القاعدة النحوية والنص القرآني.

ومن بين تلك العلاقات التي اهتم بها المفسرون بعض الاهتمام البعد الزمني في السياق القراني من خلال دراستهم للصيغ الفعلية الواردة فيه. اذ وجدوا أن القرآن الكريم يزخر بأساليب يصطبغ فيها الفعل بألوان زمنية مختلفة.

وسنحاول في الصفحات القادمة أن نبين مدى اهتمامهم بزمن الفعل في القرآن على أن نفرد لكل صيغة. من صيغ الفعل (مجردة ومركبة) طائفة من ارائهم في تحديد زمن الفعل القرآني على أن نتناولها على النحو التالي :

1- "**فعل**" مجردة من الادوات وتختلف دلالاتها الزمنية.

2- "**فعل**" مع الادوات ودور هذه الادوات في تحديد زمن "**فعل**" عندهم.

3- "**يفعل**" مجردة من الادوات وكيف تدل على مختلف الأزمنة.

4- "**يفعل**" مع الادوات في مختلف الازمنة.

5- "**افعل**" مدرجة في السياق بمختلف دلالتها الزمنية.

---

1 - معاني القرآن 2/591-592

1- فعل مجردة من الادوات دالة على الماضي

عندما تكون "**فعل**" مجردة من الادوات واقعة في ظل قرينة اخبارية، كسرد قصص الاولين، وذكر أخبارهم مما يفيد حصر زمن الفعل في الماضي : فان ما نلحظه عند أغلب المفسرين هو اقتصارهم علي شرح "**فعل**" بصيغ مماثلة في المعنى والزمن إيذانا بأن هذا الفعل يدل على الماضي لفظا، ومعنى، وكأنهم يذهبون إلى ما ذهب اليه جمهور قدامى النحاة من أن الأصل في صيغة "أفعل" الدلالة على الزمن الماضي : ففي قوله تعالى : «واذ استسقى موسى لقومه، فقلنا اضرب بعصاك الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا»(البقرة 60/2). يقول أبو حيان وهو يشرح هذه الاية : «هذا هو الانعام التاسع وهو جامع لنعم الدنيا والدين. أما في الدنيا، فلأنه أزال عنهم الحاجة الشديدة الى الماء... الى أن يقول : اذا ستسقاه قومه، أي طلبوا منه السقيا»(1).

وقد يعمدون الى السياق القرآني لتوكيد مضي زمن الفعل، يقول ابو حيان : «ويفهم من الاية أن الانفجار قد وقع وتحقق لذلك قد علم كل أناس مشربهم. وبالطريقة نفسها يرد على الزمخشري الذي يذهب الى أن "انفجرت" جواب للشرط محذوف، لأنه يجعل الفعل غير واقع «اذ يصير مستقبلا معلقا على تقدير وجود مستقبل... والمعلق على تقدير وجود مستقبل لا يقتضي امكانه فضلا عن وجوده»(2).ومن ذلك تفسيره للفعل "أزلّ" من جانبه الزمني في قوله تعالى. «فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه» (البقرة 26/2. يقول : والمعنى جعلهما زلاً باغوائه وحملهما على أن زلاً وحصلا في الزلة(3).

ومن ذلك تفسير الفراء لقوله تعالى : «واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى»

---

1 - البحر المحيط 226/1.
2 - البحر المحيط 228/1.
3 - المصدر نفسه 160/1.

(البقرة 125/2) : اذ يقول : ومن قرأ واتخذوا بفتح الخاء كان خبـرا (1) أي فعلا ماضيا.

و من القرائن التي تبين اعتماد المفسرين على السياق القرآني أن أبا حيان وهو يشرح قوله تعالى : «إلا لذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم» (المائدة 34/5) يجعل "تابوا" فعلا أريد به الاستقبال (2) اذ يبدو أنه اعتمد في هذا الرأي على الاية التي قبلها، وهي قوله تعالى : «انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الارض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الارض، ذلك لهم خزى في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم الا الذين تابوا» (المائدة 34/5). فجعل زمن تابوا ينحصر في المستقبل.

وقد اعتمد علي السياق أيضا في قوله تعالى : «والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم» (الرعد : 13/21-22) حيث يقول : وجاءت الصلة هنا بلفظ الماضي في الموصولين في قوله تعالى : «وأقاموا وأنفقوا» وبلفظ المضارع في قوله تعالى «يصلون.. ويخشون» على سبيل التفنن في الفصاحة ويبرز هذا التغيير في الصيغتين (من أقاموا وأنفقوا، الى قوله يصلون ويخشون) لما في الايتين السابقتين من معنى الشرط(3) حيث ان أسماء الشرط غالبا ما تقلب صيغة "فعل" الى المستقبل.

ولقد رأينا أن النحاة يذهبون الى أن الفعل الماضي الواقع صلة أو صفة لنكرة عامة يحتمل أن يراد به المضي، ويحتمل أن يرد له الاستقبال(4).

---

1 - الفراء معاني القرآن 77/1.

2 - البحر المحيط 385-386.

3 - المصدر نفسه.

4 - انظر الفصل الذي خصصناه لزمن الفعل عند النحاة.

ومن ذلك قوله تعالى : «ففزع من في السموات ومن في الارض» (النمل83/37) يجمع المفسرون على أن "فزع» استقبال جاء بصيغة الماضي لأن القرائن المحيطة به تدل على ذلك وهي قوله تعالى يوم ينفخ في الصور وأن "يوم" تشير غالبا الى يوم القيامة يقول أبو حيان : عبر بالماضي في قوله :فزع" وان كان لم يقع إشعار لصحة وقوعه، وأنه كائن لا محالة، وهذه فائدة وضع الماضي موضع المستقبل(1).

ومثله قوله تعالى : «يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار» (هود 98/11) حيث جاءت "اوردهم" بصيغة الماضي "فعدل عن فيوردهم" الى "فأوردهم ليحقق وقوعه لا محالة، فكأنه قد وقع(2) ولقد ذهب العكبري- الذي نهج نهج النحاة- الى أن "أوردهم" تقديره "يوردهم"(3) وهذا تجريد للتعبير القرآني -في هذه الاية من جانبه البلاغي، حيث أن الفعل الماضي "أورد" يريد له الاعجاز القرآني أن يبقى على مُضّيه في اللفظ للايحاء بوقوعه، وأن يشير الى الاستقبال بالقرينة.

فَعَـــل مسبوقة بـ "قد"

يرى المفسرون رأيا في هذا التركيب لا يختلف في دلالته الزمنية عمّا ذهب اليه النحاة، وهو أن "قد" تفيد التوقع أوالماضي القريب في أغلب الايات التي ورد فيها مثل هذا التركيب.

ومن ذلك أن الزمخشري يشرح قوله تعالى : «وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به» (المائدة 61/5) بأن قوله تعالى "بالكفر وبه حالان، أي دخلوا كافرين وخرجوا كافرين(4) وتقديره متلبسين بالكفر ولذلك دخلت "قد" تقريبـــا

1 - البحر المحيط 99/7.
2 - المصدر نفسه : 259/7.
3 - املاء ما من به الرحمن 25/2 للعكبري.
4 - الكشاف 226/1.

للماضي من الحال، ولمعنى آخر وهو أن أمارات الكفر كانت لائحة عليهم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متوقعا لاظهار الله ما كتموه، فدخل حرف التوقع، وهو متعلق بقوله : "آمنا" أي قالوا ذلك، وهذا حالهم.

ومن ذلك قوله تعالى " «لقد أرسلنا نوحا الى قومه» (الأعراف 59/7) حيث يجعل الزمخشري "قد" للتوقع، وهذا بسبب القسم المحذوف الذي يقدره في هذه الاية بـ : تالله لقد أرسلنا، أما سبب مجيئ "قد" مقترنة باللام، فهو أن الجملة القسمية لا تساق إلاّ لتأكيد الجملة المقسم عليها التي هي جوابها فكانت مظنة لمعنى التوقع الذي هو معنى "قد" عند استماع المخاطب كلمة القسم(1) وهو رأي يشبه كثيرا ما يذهب اليه النحاة من أن "قد" الواقعة في جواب القسم تفيد التقريب من الحال. يقول ابن عصفور "إن القسم اذ أجيب بماض متصرف مثبت فان كان قريبا جيئ باللام وقد نحو قوله تعالى : «تالله لقد آثرك الله علينا»(2) (يوسف 91/12) ومنه قوله تعالى : «قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها» (المجادلة 1/58) فإن صاحب البحر يجعلها للتوقع لأنه هو عليه السلام، والمجادلة كانا متوقعين أن يسمع الله مجادلتهما وشكواها(3) وقد تأتي "قد فعل" لغير التوقع، على نحو ما يوجه المفسرون من ذلك قوله تعالى : «وقد بلغنى الكبر» (آل عمران 40/3) اذ يجعلها الأخفش للحال يقول قد بلغني الكبر كما تقول : وقد بلغني الجهد، أي أنا في الجهد(4)

ويفهم من تفسير أبي حيان لقوله تعالى : «أن يسرق فقد سرق أخ له من قبل» (يوسف27/12) أن "قد" هنا لا تفيد الماضي القريب، أو التوقع انما

---

1 - الكشاف 84/2.
2 - معنى اللبيب لابن هشام الأنصاري.
3 - البحر المحيط 109/8.
4 - معاني القرآن 405/1.

جاءت إخبارا عن حدث، وقع، أو احتمل وقوعه منذ زمن : وهو ما يؤيده السياق القرآني والقرينة : والدليل علي ذلك أن الاية ختمت بـ : "من قبل" التي هي للماضي المطلق، لذلك يفسر أبو حيان هذه الاية بقوله : أي إن كان وقعت منه سرقة فهو يتأسى بمن سرق قبله فقد سرق أخ له من قبل(1)

اذ فعـــل

من الأوجه التي ذكرها السيوطي لهذه الأداة في القرآن أن تكون في الغالب اسما للزمن الماضي(2)، وهو ما يذهب اليه جمهور النحاة. من ذلك قوله تعالى : «واذكروا اذ كنتم قليلا فكثّركم» (الاعراف 86/7) «واذكر في الكتاب مريم اذ انتبدت من أهلها مكانا شرقيا» (مريم 16/19) «واذكروا نعمة الله عليكم، اذ جعل فيكم أنبياء» (المائدة 20/5) غير أن أبا حيان لا يخلص "جعل" في هذه الآية الأخيرة الى الماضي بل يراها الى المستقبل أقرب لأن "جعل" هنا، لا يراد بها حقيقة الماضي بالفعل "اذ أن بعض الأنبياء كان قد ظهر عند خطاب موسى اياهم وبعضهم لم يكن قد خلق بعد(3). يعني أن المعنى الزمني للفعل هو أن الله قد جعل فيكم أنبياء، وسيجعل فيكم أنبياء فكأن زمن هذا الفعل عنده يمتد من الماضي الى المستقبل عبر الحاضر.

كان فعـــل

من بين الصور التي ورد فيها هذا التركيب، السياق الشرطي في نحو قوله تعالى : «وان كان كبر عليك أعراضهم فإن استطعت (الانعام 35/6) وهذا التركيب مكون من "كان" التي تفيد الماضي و "كبر" وصيغتها ماضية و "إن" الشرطية التي غالبا ما تفيد الاستقبال، أما الدلالة الزمنية الكليـــة لهـــذا

---

1 - البحر 333/5.

2 - الاتقان 147/1.

3 - البحر 452/3 المصدر نفسه 133/4.

التركيب، فيراها أبو حيان على النحو التالي :

- أن "كبر" فعل ماضي انقطع وانتهى تماما، لأنه مسبوق بـ "كان".

- أن "إن" الشرطية هنا لا تدل على الاستقبال، بل تفيد التبين والتوضيح، والتأكيد على أن الفعل قد وقع مثل قوله تعالى : «إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وان كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين» (يوسف 27/12) وهكذا نجد أن الاسلوب القرآني وسياق الاية قد فرض على المفسرين اتجاها آخر في حكم وظيفة "إن" وهو اتجاه مغاير لما ذهب اليه النحاة من أن "ان" تصرف الفعل الى المستقبل.

إذا فعـــل

يقسمها السيوطي الى قسمين(1)

1- الدلالـــة على الماضـي

2 - الدلالـــة على الحال والاستقبـال

فالدلالة على الماضي، يمثل لها بقوله تعالى : «واذ رأوا تجارة أو لهوا انفضوا اليها» (الجمعة 11/62). وقوله عز وجل، «ولا على الذين ما أتوك لتحملهم» (التوبة 92/9)، وقوله تعالى : «حتى اذا بلغ مطلع الشمس» فهي كقوله تعالى : «والليل اذا يغشى والنهار اذا تجلى» (الليل 2/92)، وقوله تعالى : «والنجم اذا هوى» (النجم 1/53) .ونستأذن العلامة السيوطي للقول بأن الامثلة التي اختارها للدلالة على زمن الماضي، لا تدل على الحال فقط ولا على الحال والاستقبال فإذا وقفنا على سبيل المثال عند قوله تعالى «والليل اذا يغشى» فاننا نجد أن غشيان الليل كما يقول السيـــوطي مقـــارن

---

1 - الاتقان 148/1-149.

الليل والنهار(1) وهو كذلك في كل الأزمنة، ومثله قوله تعالى : «والنجم اذا هوى» فالنجم هوى،، وسيظل يهوي الى أن يشاأ الله، وهذا على مذهب من يفسر "النجم اذا هوى" بالنجم الذي يرجم به، أما اذا فسرت الاية بـ "النجم اذا قرب وانتشر يوم القيامة"، فلن تكون دلالة أخرى لـ "اذا هوى" غير الاستقبال(2).

أما العكبري فيفسر هذه الاية تفسيرا يحتمل الدلالتين السابقتين فهي "اقسم بالنجم وقت هويه"(3).

ان فعـــل

في وقوله تعالى : «فان آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا (البقرة /137 2): يميل أبو حيان الى جعل "آمنوا" استقبالا لأن المعنى : "ان آمنوا بكتابهم المماثل لكتابهم، أي فان آمنوا بالقرآن الذي هو مصدق لما في التوراة والانجيل»(4) "فقد اهتدوا" أما الزمخشري، فإنه يرى أن هذا التركيب يراد به الماضي المفترض لغرض التبكيت والتحدي. "لأن دين الحق لا مثل له وهو دين الاسلام. ومن يتبع غير الاسلام دينا فلن يقبل منه، أي فان حصلوا دينا آخر مثل دينكم، مساويا له في الصحة والسداد فقد اهتدوا..... ومثل هذا قوللك للرجل الذي يشير عليه، هذا هو الرأي، فان كان عندك رأي أصوب منه، فاعمل به، وقد علمت أن لا أصوب من رأيك، ولذلك تريد تبكيت صاحبك وتوقيعه على أن ما رأيت، لارأي وراءه"(5). وليس يخفى أن الزمخشري يتوجه بهذا الفعل الى الماضي، إلا أنه ماض مفتـرض مقـدر كمـا

---

1 - المصدر نفسه.
2 - الكشاف للزمخشري 27/4.
3 - املاء ما من به الرحمن 132/2.
4 - البحر 409/1-410.
5 - الكشـاف : 315/1.

مثل.

ولقد أورد السيوطي صورا لهذا التركيب من القران تفيد المستقبل المحقق الوقوع، منها قوله تعالى : «لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين» (الفتح 27/48) وقوله عز وجل : «وأنتم الأعلون ان كنتم مؤمنين».(آل عمران 193/3) وأن أصل هذا الشرط، يذكر للتبرك وأن المعنى : لتدخلن جميعا أن لا يموت منكم أحد قبل الدخول (1) لعل السيوطي يريد أن يجعل هذا التركيب مستقبلا مفرغة من معنى الشرط، فقد نقل عن الجمهور أن "إن" وردت بصيغة الشرط، وهو غير مراد في ستة مواضع (2) منها قوله تعالى : «ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا» (النور 33/24). قوله عز وجل : «واشكروا نعمة الله ان كنتم اياه تعبدون» (البقرة 112/2).

ومن قوله تعالى : «فذكر ان نفعت الذكرى» (الأعلى 9/87) حيث يروي السيوطي عن قطرب محمد بن المستنير أن "إن"هنا جاءت بمعنى "قد" وينقلب زمن الآية الى المضي ويصبح (المعنى) فذكر قد نفعت الذكرى، يقول ولا يصح فيها الشرط لأنه مأمور بالتذكير على كل حال(3) لأن هناك من من يرى غير رأي قطرب ويجعل"إن" في "أن نفعت" للشرط المراد به ذمهم، لأن الشرط جاء بعد الأمر "ذكر" الدال على الاستقبال(4). ومن التراكيب الشرطية التي وقف عندها المفسرون، قوله تعالى : «قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت ان كنتم صادقين»(البقرة2/95) اذ وجدوا ان "كان" مع "ان" من قبيل الماضي المفترض الذي لم يكن، وسياق الاية يبين أن الدار الآخرة (أي الجنة) لن تكون بهم لأن من ادعى أن الجنة خالصة له دون

---

1 - الاتقان : 155/1.
2 - المصدر نفسه : 155/1.
3 - المصدر نفسه : 155/1.
4 - المصدر نفسه : 155/1.

الناس ممن اندرج تحت الخطاب في قوله تعالى : «قل ان كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة لا يمكن أن يتمنى الموت»(1). ولذلك كان حرف النفي "لن" الذي يفيد استغراق الأزمان، ونعني بالأبد هنا ما يستقبل من الأزمان(2)، وذلك في الآية 196 التي تليها قوله تعالى : «ولن يتمنوه أبدا».

ان فعـــل

في قوله تعالى «أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم» (آل عمران 144/3)، وجد المفسرون -وهم يدرسون هذا التركيب أن همزة الاستفهام في قوله تعالى "أفإن مات» تعتبر من أحكام الشرط، لأن همزة الاستفهام دخلت في التقدير على "انقلبتم" أي، أتنقلبون ان مات) وجواب الشرط محذوف (لأن الغرض، انما هوتنقلبون على أعقابكم إن مات محمد)(3).

وانما وقف المفسرون عند هذا البناء، لأن معناه تتجاذبه أداتا الاستفهام، والشرط ولما كانت الدلالة على الاستقبال الذي تضمنه سياق الآية من تبعات التركيب الشرطي وليست ناتجة عن أداة الاستفهام. فإن كثيرا من المفسرين قالوا : إن ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض، انما هو أتنقلبون إن مات محمد؟ أما الاخفش والفراء، فيريان أن الجواب في قوله تعالى : انقلبتم على أعقابكم...»هو جزاء للشرط، وليس جوابا للاستفهام لذلك لم يقل : أأنقلبتم، فتنقطع الزلف، لأنه جواب المجازاة التي وقعت عليه، ومنه قوله تعالى «أفان مت فهم الخالدون»(4)

---

1 - الكشـــاف 315/1.

2 - المصدر نفسه.

3 - البحر 68/3-69.

4 - انظر معاني القرآن للفراء 236/1 ومعاني القرآن للأخفش الأوسط 422/1.

(يفعل) مجردة من الأدوات

درس المفسرون صيغة (يفعل) في القرآن الكريم في جوانبها الزمنية التي يضفيها عليها السياق، اذ وجدوا أن مقولات بعض النحويين المتعلقة بحصر هذه الصيغة في الحال والاستقبال لا تستوعب كل المقامات الزمنية التي تعبر عنها هذه الصيغة المجردة. وانما تنتقل الى مواقع زمنية من الصيغ مزيجا من التحليلات النحوية والبلاغية من ذلك نجد أن الزمخشري، وهو يشرح قوله تعالى «ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة» (الحج /63 22) يسعى ليعلل مجيئ معنى الماضي في صيغة المضارع وكيف استطاعت صيغة المضارع " يصبح" أن تجعل عملية الاخضرار تتجدد وتجيئ عبر الأزمان يقول : "فان قلت هلاّ قيل، فأصبحت" ولم صرف الى لفظ المضارع قلت لنكتة فيه، وهي افادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول أنعم علي فلان عام كذا، فأروح، وأغدو شاكرا له، ولو قلت فرحت وغدوت، لم يقع ذلك الموقع(1) ومن ذلك : "تجهلون" في قوله تعالى «قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون»(الاعراف 138/7) حيث يجعل أبو حيان زمن هذا الفعل عاما لا ينصرف الى زمن خاص يقول : وأتى بلفظ "تجهلون" ولم يقل جهلتم إشعارا بأن ذلك منهم كالطبع والغريزة، ولا ينتقلون عنه في ماض، ولا مستقبل(2) ومن قوله تعالى «يدبر الأمر من السماء الى الأرض»(السجدة/5 32) حيث يدل الفعل "يدبر" و "يعرج" في قوله تعالى «ثم يعرج اليه» على زمن يمتد من الماضي السحيق الى المستقبل ما دامت السموات والأرض قال الزمخشري وهو يشرح هذه الآية يدبر أمر الدنيا كلها من السماء الى الأرض، بكل يوم من أيام الله وهو ألف سنة... ويعرج اليه، يصير اليه ويثبت عنده ويكتب عنده كل وقت من أوقات هذه المدة الى ان تبلغ المدة آخرها، ثم يدبر

---

1 - الكشاف 21/3.

2 - البحر 378/4.

أيضا اليوم آخر، وهلم جرا... الى أن تقوم الساعة(1).

ومنه قوله عز وجل «يخادعون الله والذين آمنوا»(البقرة 8/2) فـ "يخادعون" وَجَدَها المفسرن في السياق القرآني، لاتدل على الحاضر أو المستقبل، وانما هي "صفة" مصاحبة لهم ولن أتى بأفعالهم في كل زمان(2).

(يفعـــل) مع الأداة

ان يفعـل

قال تعالى إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله يقف أبو حيان عند شرحه للآية -عند الفعلين " يمسسكم" و "يمس". ليبين أن هذا التركيب الشرطي، قد تضمن فعلين : أحدهما مضارع لفظا ماض معنى والثاني ماض لفظا ومعنى اذ أن المعنى عنده، ان نالوا منكم يوم أحد، فقد نلتم منهم يوم بدر، أما جواب الشرط عنده، فهو "تأسوا" فقد مس القوم قرح "لأن الماضي معنى، يمتنع أن يكون جوابا للشرط"(3).

اذا يفعـل

في قوله تعالى : «اذا تتلى عليهم آياتنا»(يونس 15/10) يرى بعض المفسرين انه يجوز في مثل هذا التركيب القرآني، وقوع الفعل المضارع بعد "اذا" وجوابه الماضي بخلاف أدوات الشرط الأخرى. فإنه لا يجوز ذلك فيها الا في الشعر.

أما الجانب الزمني لـ "اذا تتلى" فان السيوطي يرى أن "اذا" في مثـل هـذا

---

1 - الكشاف 241/3.
2 - المصدر نفسه 171/1.
3 - البحر 62/2.

السياق تستعمل للاستمرار في الاحوال الماضية والحاضرة والمستقبلية(1) سواء كانت المصيغة "فعل" أم "يفعل" مثل قوله تعالى «واذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا"(البقرة 14/2) «واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى»(النساء 142/4) أما أبو حيان فيجعل الفعل "تتلى" ماضيا لأن الاية تروي ما قاله النضر بن الحارث وآخرون(2) عند نزول ايات من القرآن الكريم، أي أن الاية كانت تروي أحداثا ماضية. وليس هناك ما يمنع من القول : بأنه يشير الى معنيين وزمنين : زمن ومعنى مطلقين يدخل في حكمهما كل من اتصف بهذه الصفة في كل زمان. أما المعنى الآخر والزمن الآخر فهما ينصرفان الى ما قاله النضر بن الحارث وصحبه.

من يفعل

قال تعالى : «ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله»(النساء 100/4) من يخرج هنا لا تنصرف الى زمن معين، ولا تتقيد بفئة من الناس، بل يمتد زمنها من الماضي الى الاستقبال. وينقل أبو حيان عن المفسرين لهذه الآية، ان كل هجرة (أي في أي زمان) لغرض ديني من طلب علم، أو حج، أو جهاد ، أو فرار، الى بلد تزداد فيه طاعة الله .... أو ابتغاء رزق طيب، فهي هجرة الى الله ورسوله أي أن "من يخرج" لا ينصرف الى زمن معين، ولا يتقيد بفئة من الناس بل يمتد زمنها من الماضي الى المستقبل(3).

لمّا يفعل

يتفق المفسرون مع النحاة على أن "لمّا" في قوله تعالى : «ولمّا يدخل الايمان

---

1 - الاتقان 149/1

2 - البحر 131/5-132.

3 - البحر 337/3.

في قلوبكم»(الحجرات 14/49) تفيد التقريب من الحال يقول الزمخشري وهو يشرح قوله تعالى : "ولما يدخل" توقع لما أمروا به أن يقولوه كأنه قيل لهم : ولكن قولوا أسلمنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم، وألسنتكم، لأن الكلام واقع موقع الحال من الضمير في قولوا" وما، وفي "لما" من معنى التوقع، دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد(1).

لن يفعل

قال تعالى : «قالوا يا موسى انا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها»(المائدة 24/5)، يقول الزمخشري وهو يحدد زمن هذا التركيب : (لن ندخلها : نفي لدخولهم في المستقبل على وجه التأكيد، والتأبيد، وأبدا تعليق للنفي بالدهر المتطاول)(2). وعلى ذلك تكون "لن" في هذه الآية هي الدالة على الاستقبال، وليس "أبدا"، غير أن أبا حيان يذهب الى أن معنى تأبيد نفي الدخول، لا يستفاد من "لن" ولكن يستفاد من الظرف المختص بالاستقبال هو "أبدا"(3).

حتى يفعل

يجمع النحاة على أن "حتى" تصرف المضارع للاستقبال في قوله تعالى «واذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة»(البقرة 55/2) لأنها في معنى : «في ايمانهم مستصحبا الى هذه الغاية، ومفهومها أنهم اذا رأو الله جهرة آمنوا»(4)

سافعل -سوف افعل

اذا كان النحاة يميلون الى جعل السين خاصة بالاستقبال القريب وسوف خاصة

---

1 - الكشاف 570/3.
2 - المصدر نفسه 604/1.
3 - البحر : 456/3.
4 - المصدر نفسه 450/3.

بالاستقبال البعيد فان المفسرين عندما وقفوا عند قوله تعالى «قال سوف أستغفر لكم ربي»(يوسف 98/12) لم يتفقوا على المدى الزمني الذي يشير اليه "سوف" هنا جاءت للمستقبل القريب وقال آخرون الى ليلة الجمعة وقالوا أيضا إنما آخر الاستغفار لهم حتى يسأل يوسف إن عفا عنهم(1) أي أنهم جعلوا سوف في الاية -هذه- المرة للاستقبال البعيد أما قوله تعالى : «سيقول السفهاء من الناس»(البقرة 142/2) فان القرطبي يجعل سيقول ماضيا. قال علم الله تعالى أنهم سيقولون في تحويل المؤمنين من الشام الى الكعبة. سيقول بمعنى قال : جعل المستقبل موضع الماضي دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستقرون على ذلك القول(2).

ويكاد القرطبي ينفرد بجعل المضارع المسبوق باحد حرفي التنفيس دالا على الماضي، ولعله يريد القول : أن زمن هذا الفعل يسري من الماضي الى المستقبل، أي أنهم قالوا ذلك وعدا، وسيستمرون في قوله . ولقد أشار الى مثل هذا، الزمخشري في الكشاف(3).

كان يفعل

جاءت "كان يفعل" في الغالب دالة على الماضي في السياق القرآني إلا أنها قد تأتي محتملة زمنين ماضيين مختلفين فمن ذلك قوله تعالى : «ولو كانوا يؤمنون بالله والنبي وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء»(المائدة 81/5). اذ نجد المفسرين يدرجونها في السياق الذي جاء قبلها وهو قوله تعالى : (ترى كثيرا منهم يتولّون الذين كفروا) فاذا كان الضمير في "منهم يعود على أسلافهم فان المراد بالنبي هو النبي داود أو عيسى فيكون "كانوا يؤمنون" للماضي البعيد أما اذا كان المراد "بالذين كفروا" عبدة الأوثان والنبي هو محمد صلى الله عليه

1- المصدر نفسه 436/5.
2 - الجامع لأحكام القرآن : 147/2.
3 - الكشاف : 317/1.

وسلم- اذ لو كان هؤلاء المتولون من المشركين يؤمنون بالله، ومحمد -صلى الله عليه وسلم- ما اتخذتم هؤلاء اليهود أولياء(1) فان زمن "كانوا يؤمنون بالله" يصبح دالا على الماضي القريب من الحال.

كاد يفعل -ما كاد يفعل

يذهب بعضهم الى أن "كاد يفعل" اذا أثبت دلت على نفي الخبر، واذا نفت دلت على اثبات الخبر(2) ويذهب البعض الآخر من المفسرين الى أن "كاد" في الثبوت تدل على المقاربة، فاذا قلت "ما كاد زيد يقوم" فمعناه مقاربة القيام دون التلبس به، فاذا قلت "ما كاد زيد يقوم" فمعناه كغيرها من الأفعال وجوبا ونفيا، ولكن هذا الرأي الأخير لا ينطبق على قوله تعالى «فذبحوها وما كادوا يفعلون»(البقرة 71/2)، وهي الآية التي أورد أبو حيان من أجلها الرأي السابق لأنه يستحيل أن تكون "ما كاد" لنفي مقاربة الفعل اذ يصبح الكعنى في الآية وماقاربوا ذبحها. وليس هذا هو المراد، لأنهم ذبحوها حقيقة كما جاء في الآية (فذبحوها وما كادوا يفعلون) أي ذبحوها، وكادوا لا يذبحوها. وفي ذلك يقول عبدالقاهر الجرجاني : فذبحوها وما كادوا يفعلون : تركيب مثبت في الصدر، ومثلو بنفي لا يغير شيئا من الفعل "ذبح" كونه قد وقع وانتهى.

اذا أخرج يده لم يكد يراها، فانما هو على حد تعبير الجرجاني لم يراها، ولم يكد، بل المراد أن الفعل لم يكن من أصله ولا قارب أن يكون، ولا أضن أنه يكون..... وذلك لأن سبيل لم يكدهنا ليس سبيل ما كادوا في قوله تعالى : وما كادوا يفعلون في أنه معقب على إثبات. وليس المعنى على أن رؤية كانت من بعد أن كادت لا تكون ولكن المعنى على أن رؤيتها لا تقارب أن تكون فضلا عن أن تكون(3).

---

1 - البحر : 542/3.

2 - البحر : 258/1.

3 - دلائل الاعجاز 213-214.

وقد وجد المفسرون أن "كاد" دلت على نفي الخبر وهي مثبتة في قوله تعالى: «أن القوم استضعفوني وكادوا يقتلوني»(الاعراف 150/7) اذ معنى الآية أن قومه لم يلتفتوا الى وعظه وقاربوا أن يقتلوه(1)

ولعلنا نلاحظ أن المفسرين لم يقولوا شيئا عن زمن هذا التركيب، ولكن شرحهم لـ "كاد يفعل" و "ما كاد يفعل" يوحي بما يأتي :

1 - أن كاد تقلب زمن المضارع الى الماضي (وذلك في نحو قوله تعالى : فذبحوها وما كادوا يفعلون).

2 - أن هناك حدثا كان يمكن أن لا يتم ولكنه تم (كما في الآية السابقة).

3 - الدلالة على أن هناك حدثا كان وشيك الوقوع لكنه لم يقع في نحو قوله تعالى : على لسان سيدنا هارون (وكادوا يقتلونني)

افعـــل

في قوله تعالى : «كلوا من طيبات مارزقناكم واشكروا الله إن كنتم اياه تعبدون»(البقرة 57/2).

يفهم من شرح المفسرين لهذه الاية أن فعل الأمر "كلوا" يدل على :

1 - الأمر بإنجاز فعل لم يقع، ولم يحدث من قبل.

2 - أو الاستمرار في انجاز فعل حدث من قبل، مما يعني دلالته على ما يستقبل من الزمن بالنسبة لزمن التلفظ به، أو دلالته على الزمن المنطلق من الماضي الى المستقبل عبر الحاضر يقول أبو حيان وهو يشرح هذه الاية "كلوا" أمر اباحة واذن كقوله : "فاصطادوا"(المائدة 2/5) "فانتشروا في الأرض"(الجمعة 10/62) وذلك على قول من قال : أن الاصل في الأشيـاء الحظـر، أو دومـوا

1 - البحر : 396/4 والكشـاف : 289/1.

على ذلك على قول من قال : الأصل فيها الاباحة(1) ومنه قوله تعالى : «فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم، وكلوا واشربوا»(البقرة187/2) حيث نجد أن كل أفعال الأمر الواردة في الآية دالة على الاستقبال الذي يفيد الاستمرار أو التجدد لأنها أوامر إباحة لمباشرة الزوجة، والأكل والشرب في كل ليالي الصيام. يقول أبو حيان : وهذا أمر اباحة لكونه ورد بعد النهي. أما قوله تعالى «كلوا واشربوا حتى يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود» (البقرة 187/2) فهو إباحة أيضا : أبيحت لهم الأشياء الثلاثة التي كانت محرمة عليهم في بعض ليالي الصيام(2).

ومن الدلالات الواضحة لفعل الامر على الاستمرار قوله تعالى «يا أيها النبي اتق الله»(المؤمنون 1/23) اذ وجد المفسرون أن سياق الآية يبين أن الأمر بالتقوى للنبي صلى الله عليه وسلم انما هو على سبيل الاستمرار والاستزادة، وعلى ذلك يكون زمن فعل الأمر "اتق" الزمن الذي يسع الماضي والحاضر، والمستقبل : يقول أبوحيان(3) أمره التقوى للمتلبس بها أمر بالديمومة عليها، والازدياد منها غير أن جمهور الفقهاء وبعض النحاة ينكرون دلالة فعل الأمر على الحدث كما ينكرون دلالته على الزمن على نحو ما سنفصله في الفصل الذي خصصناه لزمن الفعل عند الفقهاء. ويبدو أن أبا حيان استأنس برأيهم وهو يوجه دلالة الفعل "كونوا" في قوله تعالى : «فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين»(البقرة 65/2) اذ يستفاد من تفسيره لهذه الآية أن "كونوا" خلو من الدلالة على الحدث ولكنه لا يخلو من الدلالة على الزمن المستقبل القريب من الحال يقول : فقلنا لهم "كونوا" أمر من الكون، وليس بأمر حقيقة، لأن صيرورتهم الى ما ذكر ليس فيه تكسب لهم لأنهم ليسوا قادرين على قلب

---

1 –البحر : 214/1.

2 - البحر : 49/2-50.

3 - المصدر نفسه : 210/7.

أعيانهم قردة، بل المراد منه سرعة الكون على هذا الوصف كقوله تعالى : انما أمرنا لشيئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ومجـــازه أنه لما أراد منهم ذلك صاروا كذلك(1).

ويلاحظ في هذه النماذج التي عرضناها من كتب التفسير أن دراسة زمن الفعل عندهم تمتاز بكونها دراسة وظيفية دلالية، لا يكتفي بالفعل وحده، أو بالأداة التي تسبقه أو تلحقه بل تعتمد في المقام الأول، على الملابسات والسياق الذي يتحرك لهما الفعل.

لذلك جاءت دراستهم تختلف عن دراسة النحاة من حيث إنها استغرقت قدرا (وان كان غير كاف) من زمن أفعال القرآن لدراستها وفق المنهج الذي بيناه، على حين نجد أن النحاة الأقدمين لم يتوسعوا فيما اختاروه من شواهد قرآنية. واختيار هذه الشواهد، لم يكن في غالب الأمر قائما على أساس دلالي وجاء النحاة التابعون لهم، فوقفوا عند هذه الشواهد لا يتجاوزونها ولسنا نعيب على النحاة سكوتهم عن دراسة هذا الجانب.

فالدراسة النحوية وحدها لا تمكن الدارس من التعمق في بحث زمن الفعل، لأن الفعل -بحكم ارتباطه بأنسخة بلاغية ودلالية، وتاريخية لا يتحدد زمنه بالصيغة وحدها، أو باقترانه بالأداة : وانما هو يحتاج بالاضافة الى ذلك الى معرفة "وضع الفعل" داخل السياق الذي يرد فيه وهذا بفضل المعارف التي ذكرناها.

---

1 - البحر : 246/1.